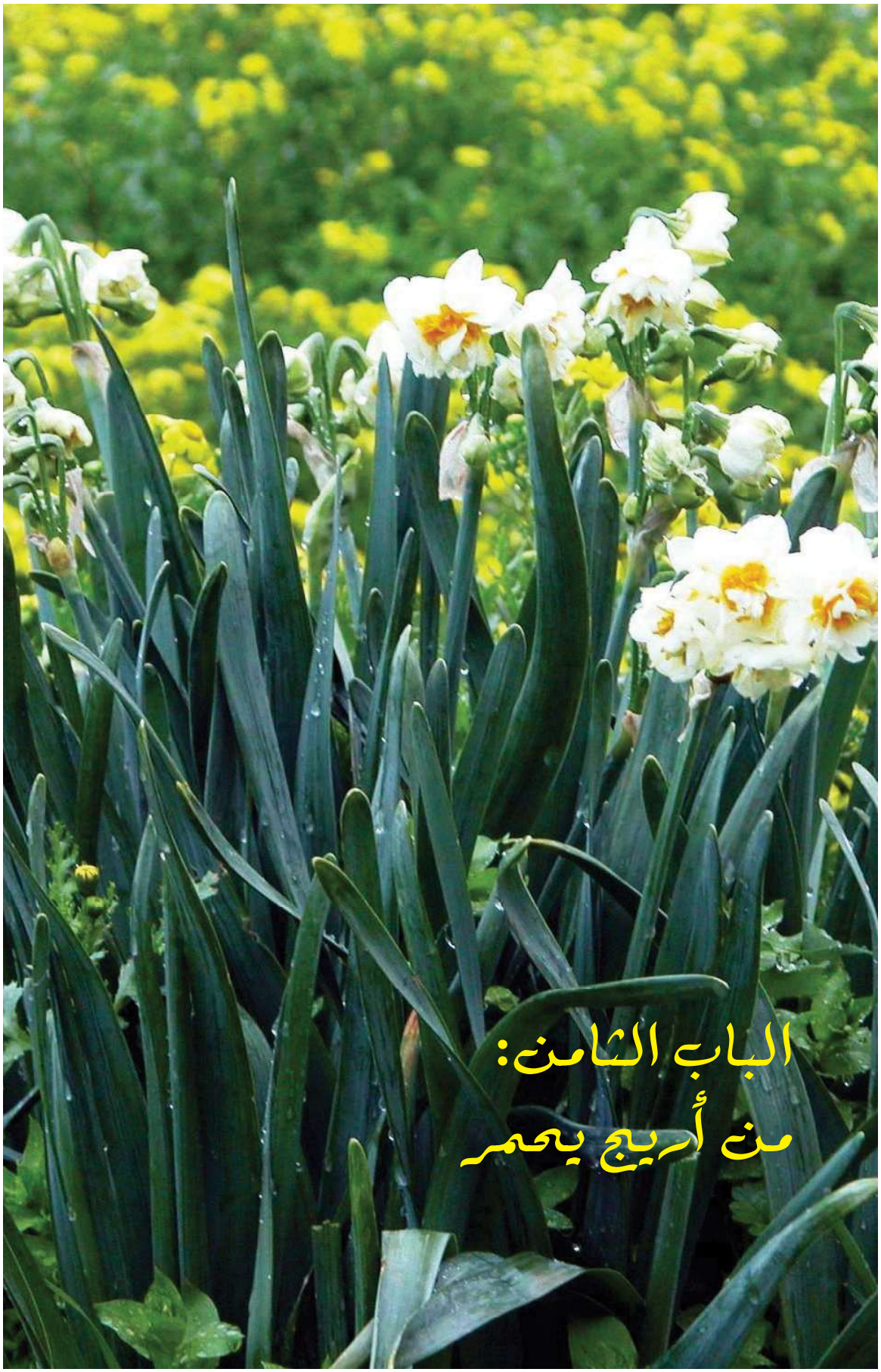

الباب الثامن:
من أريج يحمر

الفصل الأوَّل: يا رب رجِّع ليالي الماضي

اخترنا هذه القصيدة الشعبية لما تختزنه من عاطفة جيَّاشة وأسلوب قروي رقيق، وهي واحدة من مجموعة قصائد للحاج أحمد يوسف كريم أطال اللّه بعمره، تمنياتنا ألّا تبقى أشعاره حبيسة أدراج مكتبته.

يا طير لو وصّلت عبلادي ... وزرت دياري وجوّها الغادي
سلِّم على الإخوان والخلاَّن ... سلِّم عا مسقط راس أجدادي
سلِّم على الإخوان والخلاَّن ... سلِّم على السَّاحات والجدران
سلِّم على القندول والبلّان ... سلِّم على الزَّعتر بجلّ بو حرب
سلِّم على الزَّيتون بالوادي

سلِّم على الزَّعتر بجلّ بو حرب ... سلِّم على الفَيْجان جنْب الدّرب
وازرع سلامي بكلّ أرض الغرب ... من بيدر الغربي لشطّ النهر
وارصف طريق المرج قرّادي

من بيدر الغربي لشطّ النَّهر ... وديان كلَّلها الورد والزَّهر
ومروج عالجنبين نام الدهر ... وجبال لبست حلّة القندول
متل الذهب وهَّاج وزيادي

وجبال لبست حلّة القندول ... عن وصفها بيعجز بليغ القول
وكهوف عمرها ألف حَوْل وحَوْل ... مركز دفء للوحش والإنسان
وعالنار والدخان معتادة

مركز دفء للوحش والإنسان ... وفيها حكايا الكان يامكان
وحَولها الخرُّوب والسّنديان ... حرَّاسها بفصل الشّتاء من الريح
وروَّادها بالصّيف صيّادي

حرّاسها بفصل الشتاء من الرّيح ... وطيور عالأغصان حطِّتْ زيح
تغريدها صبح ومساء تسبيح ... وجوقة حجل مشيت ورا الدّيك
يروِّد وخلفه الكلّ ردَّادي

وجوقة حجل مشيت ورا الدّيك ... عليهم ملك من دون سند تمليك
الموسم دخَلْ والقمح صار فريك ... لا تخافوا الجوع بعد اليوم
هيك كان الدّيك بينادي

لا تخافوا الجوع بعد اليـــوم وفصل الشتاء للطير فصل الصَّوم
ترغلَّتين كبـــار متل التَّـوم أنثى وذكر، والأنثـى قـالت مَـش
حكم الغريزة بمنطق العادة بكِّيـــر على الحقلة لجـلب القـش
قال الذكر عندي بناء العش ذكـرى وذِكْـــر للعـائلة وإنجـاز
هذا بيعادل ميلادي

ذكـرى وذِكر للعائلـة وإنجـاز متـل الجـــرس برقبـــة الكـرَّاز
متل الجراب بكاهـــل المـعّاز ولحن القصب والأوف والمـــوال
وصوت الجدا والبلبل الشادي

ولحن القصب والأوف والموال وصوت الجِدا حامل صدى الأجيال
قطعان منتشرة برووس الجبال متـــل النســور معلّقـة بالجـــو
ولاحقة الرعيان حدّادي

متل النســور معلّقة بالجـــــو مـــن الغروب حتى طلـــوع الضو
وراعـي القطيع بالظـل بـاقي أو نازل ليروي الماشية من النهر
كلبين خلفه بنّي ورمادي

نازل يروي الماشـية من النـهر قبل الظهر السـقوي وبعد الظـهر
نادى ومشي ومازال متل المهر الكرَّاز لبَّى والجرس نادى القطيع
والكل صاروا متل القلادة

الكراز لبّى والجرس نادى القطيع والكل للـراعي ما يأمـر مطـيع
نازل عا درب النهر مسرع والجميع

ودرب النهر محفوفة بالأشجار وكل شـــجرة نـــادي للأطيـــار
وفيها من الماضي الحلو أسرار ومنها البِرك والعـــود والمسّـاس
وبلّوطها للنار زوَّادة

منها البِـرك والعـــود والمسَّـــاس ومنها الحطب بالبايكة مكداس
ووصل القطيع عا النهر كعب وراس الكـلّ ضـــامي والنهر جـــاري
غابة وروابي وعسكر وقادة

يا نهـــر بعدك مطرحك جـــاري ذاكـر تُرى لمّـن كنت جـــاري
يا ســـلوتي يـا بئـــر أســـــراري يـا جامـــع الخـــلّان بالخـــلّان
يا منتدى العشَّاق والنادي

يا جـــامع الخـــلّان بالخـــلّان يا ملتقى الأشـبال والغـزلان
عملت قناطر فوقك الأغصـــان والنعنعة والسِّعـد غطّوا الشطّ

وصوت الشَّروطة لحن بغدادي

والنعنعة والسِّـــعد غطوا الشـطّ وغـــدران حوَّلها نوادي بـط
والدِّلب والصَّفصاف خطّ بخطّ وكـلّ خـطّ بينـــتهي بتيـــنة

عليها عريشة حجمها وزيادة

كـــلّ خـــطّ بينـتـــهي بتيـنة والـدِّفـلى والعلَّيـــق للزينـــة
زاد الجـــمال وبـلَّل الطيـــنة ورود المعزى عالمي بالتـــالي

ركوع وسجود وشطّ سجادة

ورود المعزى عالمـــي بالتـالي والكـــلّ وارد أوّل وتـالـــي
ومتل الأفـاعي المي بيـــلالـــي والراعي من همّ الجفاف ارتاح

ومتل القطيع خَطَيتو صادي

والراعي من هم الجفاف ارتاح ما عـاد راعي الآن صار سبَّاح
بتخســبو بالمـــي شي صـدّاح حطّ الحِمل عن كاهلو وفاضي

صار في حكم الفلا حادي

حطّ الحِمل عن كاهلو وفاضي صـــار في حكـم الهوى قاضـي
يا نهـر سلِّملي على الماضـــي ومين كان عندي في زمان الحب

بالطهر رايح بالوفاء غادي

يا من كان جنبي في زمان الحبّ عندو سـجايا من سجين الجبّ
يا نهر نـــادي في السَّـــحَر يا ربّ رجِّع ليـالي الماضي شي عـام

ورجِّع طريق المرج والوادي

الفصل الثاني: صرخة مستمرَّة

قصيدة ألقاها المرحوم زين الدين زين الدين في ذكرى أسبوع شهداء العام 1958، حين حاصر الجيش اللبناني البلدة عند الفجر بقوّة كبيرة، تناغماً مع سياسية المسؤولين الموالية لحلف بغداد الاستعماري، ثمَّ قام بقصف الحارات والبيوت بالمدفعية والرشاشات لتكون عبرة للقرى الأخرى، ممّا أدّى إلى استشهاد ثلاثة من أبناء البلدة وسقوط عدد من الجرحى، كما تعرّض الأهالي للتنكيل والإهانات والسجن، ولأنَّ الأيام والسنين لا تستطيع إخماد صرخة المظلوم، سمحتُ لنفسي أن أضع لها هذا العنوان «صرخة مستمرة»:

يا راحليـــن لزرعتو بالقـــلوب مصاب ... مبتنتسي ولا ظروف الدهر تنسينا
هل هيك كان الوعـــد معنا بقوا خـــراب ... نتبـــرّع بدمنـــا وأغلى ضحـــايينـــا
جاءت مئات الجنود بمصفّحات وطوب ... هل ضَيَّعوا وحسَّبو يحمر فلســـطينا
هل قاوموا يا تُرى بجنـــــودهم أغراب ... أم هاجموا قوّة الأسطول عالمينا•
بل هاجموا بيحمر الأطفـــال والشـــباب ... وصـــارت بشـــدّة مدافعهم تحـــاكينا
تدمير تخـــريب مع نهـــب وكســـر بواب ... رضينا ولكن الإستسلام ما رضينا
قمنا سألنا البعض منهم عن الأسـباب ... قـــالوا لانعلم نحنا هيك أُوصـــينا
قلنا حرام ارحمـــونا قَوســـوا إرهـــاب ... قالوا ألف، نحنا للإرهاب ما جينا
جينا لنقتل ونصبـــغ بالدمـــاء تـــراب ... ونهدم ونفنـــي ضحايا قدّ ما فينا
علمنا بأنُ بهـــذا ينصّ شـــرع الغـــاب، ... مفهـــوم بالـــغاب حامينـــا حرامينا
المســـؤول يا تُرى شمـــعون أم شـــهاب ... أو مجلس الأمن أم نوّاب نادينا
أين العدالة غـــدت يا مجـــلس النـــوّاب ... درهم عدالة فقط من حقّنا عطينا
وبدنا أمان وســـلم وللكلّ نبقى صحـــاب ... لا فـــرق عنّا مسـيحيينّ ومسلمينا
بدنا حكومة عدل تقضي على الأذنـــاب ... وبدنا من الأجنبي نطهّر أراضينا
وبدنا نـــصفّي مع الأذنـــاب كلّ حســـاب ... ونقضي على التفرقة وها القدّ كافينا
وتبقى عروبة جبـــلنا بمطـــبع الأعـــراب ... وبدناش تأتي جنود الغير تحمينا
وان كان بدّو يكـــون الشـــي اســـتغصاب ... مش عار تحت السلاح لو كلّنا فنينا
أين دعـــاة العدالـــي من أولـــي الألبـــاب ... حتّـــى نعـــلّق عَوحـــدتهم أمـــانيـــنا
قوموا بنا نجول بالإجمال سوا بحراب، ... ونمحي من الكون كلّ من راد يفنينا
إمَّا الحياة، يا الرَّدى بيكون إلنا شراب، ... ولا خسّ شـــرف للنـــشء بدم شرايينا

(•): المقصود هو الأسطول الأمريكي.

الفصل الثالث: جارة النَّهر

أقام المجلس البلديّ بالتعاون مع المنتدى الثقافي صيف 2005 المهرجان القرويّ الأوّل برعاية وزير العمل د.طراد حمادة، وتخلَّل المهرجان تكريم مجموعة من مثقَّفي البلدة وعلى رأسهم الشَّاعر معروف فضل الله، الذي ألقى قصيدته (جارة النهر) بهذه المناسبة:

يا جارةَ النَّهر قلبي في الهـوى وتـري ... مقسَّـمُ الشَّـوقِ بينَ العيـنِ والنَّـهَرِ

وسـاحلُ البحـرِ ما أبقـى سـوى رَمَقٍ ... مبعثـرٍ في بقـايا الوجـدِ مُنفـطرِ

ما زلـتُ أنشـدُهُ للحـبِّ أغـنيـةً ... كـرمى لبنتِ شـقيفِ القـلعةِ الأثـري

هـنا نشـأتُ صـبيًّا تحـتَ ظـلِّ أبٍ ... غَنِيتُ منـهُ بحـبِّ المجـدِ في الصِّغَرِ

كمْ رحْتُ أسـمعُ أنغـامَ السَّـماءِ هنا ... في مطـلعِ الفجـرِ تـروي أصدقَ الخبَرِ

من وحيِ هينـمةِ الآيـاتِ قـد سـطَعَتْ ... شمسُ القصيـدةِ في قـلبي وفي فِكَري

تـألَّقَـتْ في مـرايـاهـا عـلى صـورٍ ... من الجَمـالِ مزجْـن الصحـوِ بالمطرِ

وربَّ قائلـةٍ والكـأسُ فـي يـدِهـا ... ويـانعُ الشّـعْرِ يحـكي يانـعَ الثَّـمَرِ

قد أنضجَتْ شـمسُ آبٍ كلّ معتـجرٍ ... مـن الكـروم فهـات الكأس واعتصر

أيقظتُ غفـوةَ أقلامـي وقلـتُ لهـا ... خمـرُ القصـائدِ يـروي منتدى السَّمَرِ

وغرسـةُ الشّـعْرِ قبـلَ الكـرمِ منبتُها ... بهـا سـكرْتُ كما السّـمَّارُ في سَـكَرِ

قالتْ وما الشـعْرُ؟ من أين الجمـالُ له؟ ... قلـتُ: الجمـالُ اختـراعُ اللهِ لا البشَرِ

ألسْـتِ يحمـرُ قـد سـوَّاكِ بـارعـةً ... حسـنـاءَ مبـدعُ تلك الأنجـم الزُّهَرِ

مـا بيـن قلعتِـكِ الشّـمَّاءِ راسـيةً ... وبيـن نهـرِكِ آيـاتٌ منَ الصُّـوَرِ

قد جاذَبَ الحسْـنُ منها كـلَّ جـارحةٍ ... حتَّـى تمـازجَ فيـها السَّـمْعُ بالبصَرِ

فتـلك كالتَّاجِ يزهـو فـوق مفـرِقِها ... وذا عـلى قـدميها سـالَ في خَـدَرِ

ما كسَّـرتْ منـك كـفُّ البغـي مُنْجَـبِرٌ ... ومـا تكسَّـرَ منـهـا غيـرُ منجـبِـرِ

ألسـتِ من جبـلٍ حـبُّ الجهـاد لـهُ ... ديـنٌ بـه آبَ نـصـرُ اللهِ بالظَّفَـرِ

ألسـتِ من جبـلِ الآدابِ عامـلـةٍ ... قـد أودعَ اللهُ فيـه كـلَّ مُبتـكَرِ

تلك الهضابُ تـعالـى اللهُ مبـدعُـها ... تكـادُ تبعثُ نَسْـمَ الرُّوحِ في الحـجَرِ

ثــلاثةٌ هي أنــداءُ العُلــى اجتمــعَــتْ ... فــي أفْــقِ يُحــمرَ تـروي الأرضَ بالعِبَرِ

مــاءُ السَّــحابةِ إذ تنــهلُّ نــاشــرةً ... مــن كلِّ لــونٍ بهيــجٍ في الرُّبى نَضــرِ

والماءُ مــن جبــهةِ الفــلَّاح يسـكبُهُ ... على الكفــاح فيحــيي ميِّــتَ الشَّـجَرِ

حتــى إذا ائتــلقا فــوق الثـرى امتزجا ... بكــلِّ قطــرةِ نــورٍ للــدّمِ العَــطِرِ

حتــى إذا اعشــوشــبَتْ واهتــزَّ وارِفُها ... والتــرْبُ كالتِّبْــرِ والحصــباءُ كالدُّرَرِ

والزّهرُ يضحــكُ والأغصــانُ لاهيــةٌ ... والطــيرُ ينشــدُ فــوقَ المِنْبـرِ الخَضِرِ

قالــتْ محــدّثتي والسُّــهْدُ أتعــبَهـا ... والليــل رنَّــقَ جفنــيها على السَّـهَرِ

أيــن الربيــعُ؟ أليــستْ تلك أخيــلــةً ... كالسّــحْرِ خــدَّاعةً للعــين والنَّــظَرِ؟

أجــبتُــها وفــؤادي نــاطــقٌ بفــمي ... هــذا ربيــعُ دمــاء الفتــيةِ السُّـمُرِ

أمام عينيكِ شــمسُ النَّصرِ مشــرقةٌ ... كشــمسِ أيَّــارَ إنْ أبــصــرتِ فاعتبري

وسط البلدة

الفصل الرابع: هنا جرحوا شريان قريتي

مقالة كتبها الفنان رفيق علي أحمد في جريدة النهار بتاريخ 17 / 8 / 1994، لمناسبة حصار البلدة، ونظراً لصدق الكلمات وقوة التعبير وعمق الدّلالة، نعيد نشرها:

لا أذكر أنَّ أبي عانقني وقبَّلني طوال خمسة وعشرين عاماً عشتها معه في بيتنا في يُحْمُر الشَّقيف، وأبي، مثل غالبيّة القرويّين، لا يبوح بحبّه وشوقه حتّى لأولاده، إلاّ إذا اشتدَّ عليهم المرض أو عند عودتهم بعد طول غياب، كان عندي هذا الإحساس حين ذهبت من بيروت لزيارة أهل قريتي المعتصمين في الصليب الأحمر في النبطيّة، كان بي شوق وحاجة لأن أكون قريباً من قريتي في هذه اللحظة.

حين وصلت إلى المكان كان أحد المعتصمين يقول بصوتٍ عالٍ: ليس لنا مطلب غير هذا، وأشار بيده إلى اللافتة المعلَّقة في صدر الغرفة: «مطلبنا الوحيد تحرير يُحْمُر الشَّقيف من العدوّ الصهيوني».

وبعدما سلَّمت على الجمع فرداً فرداً، نادى أحدهم من الخارج: جاء النائب الفلاني، دخل كمن يدخل للتعزية في ميت، ولمّا استوى حكى، قال: أنتم ماء السمكة، فجفَّ الرِّيق في حلوق المجتمعين من أجل فكِّ الحصار ومن أجل مدّ القرية بالماء الّذي تفتقده في حصارها، وختم: اصمدوا، كلّ الوطن معكم حكومةً وشعباً وأنا في هذه السَّاعة من يُحْمُر الشَّقيف، ثمَّ ركب سيارته المرسيدس ذات الزجاج المدخَّن وعاد إلى بيروت.

ثمّ نادى المنادي: جاء النائب الفلاني، فلمّا استوى حكى، وقال: أنا ما جئت لأقف معكم كنائب، أنا جئت لأنّني واحد منكم ولأنَّ ما يصيبكم يصيبنا وما ينيبكم ينيبنا، ثمَّ ركب سيَّارته الّتي تشبه السيَّارة الأولى ومضى إلى بيروت، وكأنَّ الّذي وهبهم هذه السيَّارات واحد وأعطاهم معها الخطاب نفسه الّذي يجب أن يؤاسوا الآخرين به.

قلت: إخوان، لكن ما خصّ بيُحْمُر الشَّقيف، إنّها ضيعتي وضيعة هؤلاء، والمطالب الّتي سجَّلها النائبان الحديثان على ورقة وأخذاها معهما، هي المطالب ذاتها الّتي أخذها معه النائب يوم جولته الانتخابيّة في عام 1972، إذن كذب كالعادة ويُحْمُر ليست بحاجة إلى الخطاب، ولا زارها أحد في حياتها ولا قدّم لها أدنى خدمة.

يُحْمُر الشَّقيف اشتروها أهلها من الإقطاعيّ، اشتروها بعرقهم وبدمهم، هم الّذين شقُّوا بمعاولهم طريقاً لها والدولة ما قدَّمت لهم إلاّ الزفت، هم الّذين بنوا مدرستها بأيديهم وبأموالهم، هم الذّين فتَّتوا صخرها بمعاولهم وحوّلوه تراباً، وجمعوا ماء الشتاء في الآبار واشتروه من الينابيع المجاورة بـ«السيترنات» وتقاسموه مع أرضهم المعطاء الوفيّة السخيّة، فأصبحت شقفان يُحْمُر

جنّةً خضراء على مدار السنة، تثير حفيظة اليهود فينعتونها بـ«الخضراء» وتصل الوقاحة بأحد الإسرائيليّين إلى أن يقول: أنتم أهل يُحْمُر، عملكم وجهدكم كجهد اليهود، العرب خاملون وكسالى.

قلت، وأنا الجبان، أذهب نكاية بهؤلاء النوَّاب إلى بلدتي لأثبت كذبهم وأثبت صدق إحساسي بالحبِّ لهذه البلدة، تبرّع صهري «الحاج فايز» أن يوصلني إلى الحفرة الّتي أحدثتها إسرائيل، وأبى «الأستاذ محسن» إلاّ أن يرافقني، والأستاذ «محسن» هو ذاته الّذي استقيت منه شخصيّة «الأستاذ خليل» في مسرحيّة «الجرس»، قلت: يا ابن خالتي أخرجوك محمولاً على سلَّم فوق هذه الحفرة في أوَّل يوم حصارٍ للقرية بعد إصابتك بنوبة رمل، حاولت أن أثنيه فلم أفلح، وصلنا إلى الحفرة.

علمي أنّهم يرفعون سواتر ترابيّة حين يقطعون الطريق، فلماذا اليوم في هذه النقطة بالذات حفروا حفرة؟ حين نظرت إليها، آلمني معصمي وأحسست كأنّ شرايين يدي قُطِعت، فأمسكت يدي، جرحوا الأرض في المكان نفسه الّذي نزفت فيه «سلام» حين كانت ذاهبةً إلى المستشفى لتلد، أوقفها الحاجز الإسرائيليّ في المكان نفسه، منعوها لساعات فنزفت حتّى ماتت.

اسمها «سلام» بنت يُحْمُر الشَّقيف وليس «زينب» ولا «فاطمة»، هذا اسمها، زوجة «محسن جابر» ابن خالتي، اسألوا عنها، هنا جرحوا شريان قريتي، رأيتها تنزف، من يسمع صراخ الأرض النازفة، أنا سمعتها تصرخ فأمسكت معصمي، كانت الجرّافة الإسرائيليّة على بعد مئة متر من الجرح النازف، جرّافة ذات شفرة عريضة الأسنان، كانت كالحيوان الآليّ بعدما انقضَّ على فريسة، كان الجنود الإسرائيليّون أمامها وكأنّهم يردعونها من قضم المزيد، رأيت أسنان الجرّافة ما زالت عليها آثار دماء، فأرض يُحْمُر الشَّقيف حمراء بلون الدم.

كانت رغبتي في هذه اللحظة أن أضمّ يُحْمُر الشَّقيف إلى صدري أن أقبّلها في عنقها وأن أرمي رأسي على كتفها.

دهِش الجيران وأنا الجبان، في غير أيام الحصار كانت زياراتي قليلة.

قالت «الحاجّة نعيمة»، إمّك مش عندك ببيروت؟ قلت: بلى، جايي شقّ عالضيعة..

كانت لي رغبة وحاجة لأن أقبِّل قريتي، حين جاءت أختي «فاطمة» من عند الجيران، و«فاطمة» تشبه القرية بحبّها وعاطفتها وغيرتها وصبرها، غمرتني وشدَّت فأحسست كأنّ يُحْمُر كلّها تعانقني، «فاطمة» ربّتني وربّت إخوتي، «فاطمة» شممتُ فيها رائحة يُحْمُر، فهدأت.

يا يُحْمُر الشَّقيف، يا ستّ القرى، ويا أعزّ الناس لك الهناء بصبرك، ولك الأجر بعطشك، أيّتها المنسيّة المعاقَبة، عوقبتِ لأنَّك لم تقدِّمي أيّ شهيد في معارك الداخل، بل شهداؤك ماتوا على أرضك معانقين شتول تبغك، راوين زرعك بدمائهم.

يُحْمُر الشَّقيف، يا ضيعتي وحبّي ويا بيت أبي وحلمي بأن يكون لي فيك بيت وشجر...

اغفري لهم ولي، أنا ما غبت عنك، أنت الماء وأنا السمكة، أنا الراوي وأنت الحكاية، أنا حملت جرسك، جرس خالي الّذي اشتاقت إليه أودية نهر الليطاني العميقة، حيث كان يختلط رنينه بأصوات أجراس كنائس «دير ميماس ومزرعة الحمراء والقليعة».

ما زالت تلك الأصوات ترنّ في صباحات الصيف وأنا صغير أنصب أفخاخاً لطيور الحجل وحيداً على منحدر قلعة الشَّقيف، هناك كدت ألمس الشَّمس لقربها حين تشرق من خلف «جبل الشيخ» ناظراً إلى «مرجعيون» وسهل «الحولة» مبرّداً نظري بمياه البحر.

واعذرني أيّها الخال، فقد نسيت روايات عنترة والزير حيث تعلّمت المسرح لأوّل مرّة في بيتك، ورحت أروي حكاياتك وحكايات القرية، حملتها في قلبي ووجداني ورويتها للقاصي والداني، فكانت حكاية يُحْمُر الشَّقيف حكاية الوطن.

حين عدت من القرية، حمّلتني أختي «فاطمة» من يُحْمُر المحاصرة عنباً ومجدال بصل أبيض و2 كيلو فريك ورمّان وعدَّة بيض، قلت يا أختي خلّيهن، إنتو محاصرين؟

قالت: الدني بألف خير، وبالضيعة خير كتير بس نتفة الميّ، وشوقنا إلكم.

فيا ضيعتي يُحْمُر الشَّقيف، السهم في أرضك أغلى بكتير من سهم «السوليدير»، فإلى أن يستقرّ سعر هذا الأخير ويرضى علينا الأميركان ويطبّقوا القرار أربعة وربع، عندئذٍ يعود إليك الوطن ويرمي لك بورقة مطالبك واحتياجاتك، لك منّي حبّي وسلامي ...